وسقوط اليعاقبة واعدام روبسبيير · بدأت خيبة الامل ، وموجة اليأس · بعد الآمال التي انعشتها الثورة المجيدة · وجاءت الاحداث التالية حتى سقوط نابليون ، واستعادة اقطاب الرجعية في الحلف المقدس لزمام السلطة والسطوة، ليزيد من خيبة الامل عمقا واتساعا ·· فكان الانسحاب الرومنسي من حاضر مؤلم الى ماض موهوم ، يبدو هو الحل الافضل ، وبالاخص بالنسبة للطبقات الوسطى الحائرة والمسحوقة ·· لقد خفف الكتاب الرومنسيون ضغوط الحاجات الانية بالرجوع الى الماضي ، وبعث الكنوز العظيمة التي ابدعتها عبقرية الازمان الغابرة ، فاخضعوا ارادة الاحياء وضمائرهم لارادة الاموات (٢١) ، بعثت من جديد افكار ومعتقدات كانت موجة العقل قد كسحتها ولكنهم اشعلوا خيال اوروبا وملأوا عقولها بالاشباح وذكرى القلاع القديمة ، وقلوبها بالعظمة والمجد · ردوا الاعتبار لكل قديم ، حتى روما المقدسة في العصور الوسطى ، ووجدوا في ميثولوجيا الشعوب معينا لا ينضب ، وتحمسوا للعرق النقي ، كما فعل مولرفي حماسه للعرق والدم ·

ان الماضي ، في اعين من تأخذ بخناقه ازمات الحاضر وهمومه ، يكتسي بهالة من الابهة والجمال الرومنسي ، مهما حمل في طياته من قبح وقذارة · وتتلفت الطبقات والفئات المسحوقة والتي ترزح تحت وطأة اليأس وخيبة الامل ، الى مثل الحرية والاخاء والمساواة وهي المثل السامية لعصر العقل والاستنارة، فلا تجد مهربا سوى الى الجنة المفقودة في الماضي · زمان الدعة والاستقرار وتهيم اعجابا بجمال العصور الوسطى الغابر ويبدو الملوك في ابهة الملك ، وبرغم كل ما اقترفوا من مظالم وبشاعات ، برونق اخاذ ، في اعين الرومنسيين الحيارى ، وحتى رجال الدين تفتقر لهم خرافاتهم وخزعبلاتهم · ولا يبقى من ذكراهم سوى الكاتدرائيات البالغة الروعة والجمال التي خلفوها وراءهم · وقد خلق الفن القومي فيالناس ميلا الى معتقدات الماضي وطقوسه ، وبعثت الكاثوليكية من جديد في المانيا وفرنسا ، وهي مدينة في هذا الاحياء لاجواء الخيال والهيام بالماضي والحنين المشبوب الى جنان العصور الوسطى مما اشاعه الرومنسيون الرجعيون ·

اصبح المثل الاعلى المتمثل في الانسان الطبيعي والحياة الريفية الوادعة هما البديل عن مثل العقل والتقدم ، والشغل الشاغل للعقول والقلوب في القرن التاسع عشر ·· والتي ملأتها اوهام الرومنسية واحلامها اصبح الفلاح الساذج والوادع يجسد اعظم الفضائل في المجتمع ، في مواجهة بؤس العامل الاجير ، وموجة التصنيع والحضرية القاتلة !! وارتفع الى مصاف الامل الذي ترنو اليه وتتطلع الرجعية الجديدة ، من الاقطاعية المهذبة ، على يد طبقة من الفرسان السمحاء · وجاء مترنيخ ليعدد بمختلف الحجج مزايا الامير القدير والمدرب ، الذي تحيط به كوكبة من النبلاء ، المخلصين · وتغنى البعض بقناعة العصور